فرشاة أسنان وحيدة

فرشاة أسنان وحيدة

سامية ابو زيد

قصص

تصميم الغلاف : مروة فتحي

رقم الإيداع : - 2014/25973

-I.S.B.N: 978-977-488-333-0

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة : 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : 01144552557 - 01147633268

E – mail :daroktob1@yahoo.com

دار اكتب للنشر والتوزيع : Facebook

الطبعة الثانية ، 2015

فرشاة أسنان وحيدة

سامية أبو زيد

قصص



دار اكتب للنشر والتوزيع

الوهج الأخير



"أين أنت أيتها اللعينة ؟"، قالها بعصبية و بصوت مسموع وهو يفتش فى الأدراج بحثا عنها. الشمعة "الخالدة " كما يسميها والتى يتذكرها كلما غاب النور، فيبحث عنها ويوقدها. لم يدر أنها سمعته، برزت إليه فى الظلام لتصطدم بأصابعه، فأخذها بلهفة، وبحنق عاتبها قائلا: "أين كنت؟ كاد الطعام أن يحترق وأنا أبحث عنك." قال ذلك وهو يجرى بها نحو المطبخ بعد أن أشعلها، ولم ينتبه لذؤابتها وهى تتحرك بعنف غاضبة من كلامه، ولم يسمعها وهى تقول له: "هكذا أنت دائما، لا تتذكرنى إلا عند الحاجة. ثم تعود وتتهمنى وتلقى على باللوم كله. "إحترس، أنفاسك الغاضبة ستطفئ نارى، وعندئذ ستلعننى كعادتك." قالتها وانسابت دموعها المنصهرة على يديه فاحترقت أصابعه، فلم تسلم من لعناته.

وبعد أن فرغ من الطعام، مضى بها نحو الحمام كى يغسل يديه، ثم خرج مسرعا نحو المكتب لاستئناف كتابة التقرير المطلوب منه، فلن يستطيع الذهاب إلى عمله بدون هذا التقرير كالتلميذ الكسول الذى يتحجج بانقطاع النور. وفى غمرة رواحه ومجيئه لم يلتفت إليها، لم يدر أنها فى النزع الأخير، وأن إيقاعه السريع يعجل بفنائها.

ظلت تصرخ فيه أن احترس. أنت بهذا تقتطع من عمرى، ظلت تصرخ وتتوهج مع صرخاتها المحذرة فلا يستجيب. كان كل همه أن ينجز ما عليه فالنور لن يأتى الليلة.

وأخذ يكتب وهى إلى جواره، ولا يسمعها وهى تعاتبه قائلة: "أنت الآن بحاجة إلىّ، وها أنا عن طيب خاطر أعطيك ما لدى، ولكنك تقتلنى وتقضى على، ولطالما سمعتك تقول إنك ستأتى بغيرى، ولكن إذا ما انتهيت وفنيت، هل يمكنك أن تأتى بى؟"

ومع آخر كلماتها توهجت الوهج الأخير وتحركت ذبالتها بعنف وهى تحتضر، والتفت فجأة وهو يضع قلمه مع آخر أنفاسها، ليلمح صورة فى إطار ـ عليه شريط أسود ـ لامرأة تبتسم بحزن.

الأغر المحجل



وقف يضرب الأرض بحوافره فى قلق وتأهب تعود عليهما قبل كل مباراة. لا يدرى ما سر قلقه هذه المرة؟ فمنذ أن اشتراه صاحبه ومعه شهادة بأصله العريق، وهو لم يخذله فى أى سباق.
نظر نحو قوائمه المسورة بإطار أبيض وأحسها قيودا ربطته إلى هذه الأرض وإلى هذا اللجام، فهى التى وشت بعراقة أصله ورفعت من سعره، فآلت ملكيته لذلك الصاحب الجديد.

ترى هل سيفوز هذه المرة أيضا؟ لمح غرته البيضاء هلالية الشكل على سطح نظارة فارسه اللامعة، لكم جذبت نحوه الأنظار ببهاء لونها وسط جبينه والناصية السوداء من فوقها تتطاير يمنة ويسرة إذا ما داعبها الهواء، فتلفت قلوب العذارى نحوه بإعجاب مسترق من الفارس الذى يمتطيه.

ها هو يلمع هناك، الكأس محاط بباقة زهر فواح فى وسط المنضدة، لكم يحب هذه اللحظة، لحظة تسليم الكأس للفارس، وربتة ممزوجة بالفخر والعرفان المغلف بالحنان من يد فارسه.

وانطلقت الرصاصة وفتحت الحواجز لينطلق ومعه باقى المتنافسين من بنى جلدته من الخيول العربية الأصيلة.

ها هو ينتهى من المنعطف الأول بنجاح يليه الثانى، وعند الثالث تأتيه كبوته الأولى. ويخرج من السباق بساق معطوبة ويلمح على

الطريق قريبا له يجر عربة ثقيلة، ويلهب ظهره ضربات سوط فى يد غليظة.... فيفزع، هل سيعود؟ هل ستشفع له كل تلك الأوراق التى تشهد بعراقة أصله؟ هل سيذكرون له تلك الكؤوس المتراصة؟ أم أنها هى الكبوة؟

لكنه اكتشف أن ما كان يخافه من مصير أمام عربة جر أو فى حلبة سيرك من الدرجة الثالثة، يعد تفاؤلا. اكتشف ذلك وهو يرى تلك الفوهة المصوبة نحوه ويلمح دمعة تنحدر على خد ما.

المهرج



علت الموسيقى الصاخبة، وأظلمت الحلبة إلا من بقعة ضوء تتحرك بجنون يواكب صخب الموسيقى المنطلقة من الركن المظلم، لتستقر عند المدخل.

ها هو، ذلك الذى يضحكهم كثيرا حتى تدمع عيونهم، وحتى تشرق الأطفال بحبات الفيشار ورقائق البطاطس.

وقف وسط الحلبة بهيئته الزرية التى تتمثل فى حلة متنافرة الألوان مليئة بالرقع، وعلى وجهه المساحيق الصارخة التى يرسم بها عينا تبكى وعينا تبتسم، وحول شفتيه فم بالغ الضخامة مبتسم.

وقف ونظر للجماهير التى تنتظر منه الجديد. أين الجديد؟ لا جديد.

مشى يمينا ويسارا وهو يعرج، فلم يضحك أحد.

تعثر فى مشيته وانكفأ على وجهه، ولم يضحك أحد.

رقص وغنى وقفز فى الهواء..... ولم يضحك أحد.

وقف وسط الحلبة وقد أعيته الحيلة واعترته الحيرة، ثم تناول منديلا كبيرا أخرجه من جيبه، وبه تعلقت عيون الناس، فى رحلته من جيبه إلى يده التى ارتفعت به نحو وجهه.

وأخذ يجفف العرق المتصبب منه لايدرى من أين ولماذا هو غزير بهذه الصورة!؟

وحين مسح عينه اليمنى بالمنديل مسح المساحيق التى تزينها، فظهرت للناس بحزنها وألمها الدفين، وضحك الناس.

ثم مسح عينه اليسرى فأزال اطلاء عنها، فظهرت لهم بغضبها المكبوت، وضحك الناس والأطفال.

وانتبه لما يحدث، فأخذ يزيل الطلاء والمساحيق عن وجهه وهو يقول لنفسه: اضحكوا اضحكوا أكثر وأعلى.

ومسح الابتسامة العملاقة عن فمه وسط ضحكاتهم المتعالية.

وأخذ يمسح ويمسح، ويزيل الطبقات كلها حتى انكشف لهم وجهه. وجه مليء بتجاعيد حفرها الزمن المهموم، ولكنهم استمروا بالضحك الصاخب المجنون.

وبدأ يقشر جلده عن وجهه، وانكشف اللحم بحمرته المرعبة، ولكنهم ظلوا يضحكون.

أزال اللحم عن العظم وانكشفت جمجمته فتعالت الضحكات بشكل لم يطق معه احتمالا، حاول سد أذنيه بيديه، فوجد محلهما ثقبين، ونفذ الصوت إلى داخل جمجمته عبر يديه اللتين زال عنهما اللحم بالمثل.

عندئذ فقط ... انطفأت الأضواء وسكتت الموسيقى الصاخبة، وبقيت أصداء الضحكات تملأ المكان.

فرشاة أسنان وحيدة



دون أن ينظر سحب الفرشاة وبدأ يغسل أسنانه كما تعود كل يوم منذ طفولته البعيدة، فتلك اللحظات هى أحب اللحظات إلى نفسه، عندما يقف أمام المرآة ويسترجع أحلامه السابقة. أحلامه البعيدة والقريبة، وشرد فى حلمه الذى امتد طيلة الليلة الماضية حتى أفاق على منبه المحمول بجواره.

كانا صغيرين يمرحان ويلعبان من حولهما، كانت السعادة تغمرهما فالأولاد زينة الحياة الدنيا، وقد أنعم عليه الرحمن بصبى يبهر كل من يراه بذكائه وطلاقة لسانه، وصبية ليست كبنات اليوم، فهى تجمع بين الفطنة والجمال مع حياء نادر بين قريناتها، وزوجة هى إلى مصاف القديسات تكاد ترتقى. حياة حلوة بسيطة كأنها شهر عسل مقسوم على أربعة قلوب مليئة بالحب.

كان حلما جميلا، فقد زارته زوجته فى نومه بثوب العرس، والغريب حيث لا شيء مستغرب فى الأحلام، أن ولديهما كانا يحملان طرحة الزفاف لأمهما، وكان يدرك أن هذين هما ولداه. لكنه كان يحلم ولا وقت لديه للدهشة، هاهى كعكة الزفاف وهاهم المهنئون يتوافدون عليهما لتهنئتهما بالزفاف السعيد.

وفجأة رأى هؤلاء وهم يودعونه ونداء فى مكبر صوت يستعجل المسافرين... ثم سمع جرسا عاليا. كان الجرس صادرا عن المحمول

عندما وصل لنهاية الحلم، وكان قد فرغ من غسيل اسنانه مع اخر لمحة من الحلم الذى أمضى الصباح وهو يسترجعه، وللمرة الأولى نظر أين يضع فرشاة أسنانه، فوجدها وحيدة.. مثله.

أقراص الدواء

قرص واحد وينتهى الشريط. قرص واحد ويمر عقد من شهر. تلقى بالعلبة وتفتح غيرها فى اليوم التالى، ثلاثة شرائط مستهلكة أم شهر الذى استهلك؟

تتعجب وتسحب غيره بعد أن أصبحت تحسب غيبته بتلك الأقراص. تفتش فى حنايا النفس عن ذكرى تداوى بها تباريح الغياب. وحين يضنيها الألم، تهب من مكانها باحثة عما يشتت تفكيرها، تبحث عن وسيلة أخرى تستهلك بها أيامها غير تلك الأقراص. تتناسى أسقامها وعللها وتدفن همها فى تلك الشاشة مع الألعاب تارة ومع رفقاء الوحدة والوحشة تارة، حتى يدركها الصباح، فتقبع بانتظاره عساه يلقى عليها بالسلام بين ساعات العمل خلسة.

غريب أمر هذا الشوق، تستغرب حين تقول له أوحشتنى، بعد أن صارت الوحشة وحشتين، فبالأمس كان يوم الجمعة، يوم إجازته ولا يمكنه لقاؤها عبر الشاشة.

وتستغرب أكثر حين يرد بالمثل، تتعجب من حال الزمان وتتذكر كيف كانت تشتاق له قبل رحيله حينما كانت تطول به ساعات العمل. تتعجب من صبرها على فرقته، وهى التى لم تكن تستكين إلا فى حضنه الحانى. يا للنفس القوية! يالضعفها!!

حين غاب أول مرة ظنت أن الروح ستنخلع من مكانها، لكنها لم تنخلع، ولكن الصبر فر من تحت جلدها وفارق الدم وترك محله داء السكرى، فتملكها العجب، أيأتى المر بالسكر؟!

تنظر نحو العلبة مجددا، وتراودها الوساوس، فقد يكون الشفاء فى تلك الأقراص، قرص واحد يوميا قبل الإفطار كفيل بكبح السكر فى دمها. أما الشريط... فكفيل بترع الصبر ومرارته من قلبها. وتمد يدها نحو العلبة.....

الثمن

مر العام ال... كغيره من الأعوام، وعاد ليجدها وتجده.

بلهفة احتضن الأبناء، لمح شعيرات متناثرة تحت أنوفهم واستدارات طرأت على جسد البنت، وخجلا يكسو وجهها تحت وطأة نظراته المستغربة.

وتفرست هى فيه تتأمل انحسار المزيد من شعره الذى تساقط كما تساقطت ملامحه من الذاكرة فى محاولة لحفظ الصورة الجديدة له، فكلما غاب وعاد، صار عليها أن تحفظ شكله الجديد.

وفى طريق العودة تحملت الشمس اللاهبة بثوبها الداكن الضيق فى هذا الصيف القائظ لعله يخفى ما اكتسبته من كيلوجرامات النعمة. وهناك فى البيت، بدأت المهمة الصعبة، إخلاء خزانة الملابس من بقايا ملابس ابنتها.

"أف لها هذه الفتاة المهملة، ألم أطلب منها الانتقال "مؤقتا" إلى حجرتها أثناء زيارته حتى يعود"؟

زيارته!!! تعجبت وهى تهمس لنفسها، لماذا تتكلم عنه بضمير الغائب؟؟؟

لماذا تتكلم عنه بضمير الغائب بينها وبين نفسها!! هل تخجل أن تقول عنه انه أبوهم؟ أم تراها تعتقده منازعا لها فى أبوتهم؟؟!! يعود!!! هل أصبح زائرا وأصبح رحيله عودة!!

دخل الحجرة دون أن يقرع الباب، انتفضت ثم ابتسمت لنفسها قريرة العين، لم ينس، لم يتغير شعوره بها، مازال يتذكر أنها زوجته وأنه الوحيد الذى لا يحتاج إلى استئذان قبل الدخول عليها.

وتلفت حوله متفحصا، أكلما عاد يجد الصورة مختلفة؟!! لماذا لم يعد يشعر بأنه يعود، ها هو يقلب فى الأشياء متفحصا فى محاولة للتعرف عليها، ويبتهج لمرأى سجادة لم تتغير ولم يتغير موضعها، كشخص عزيز صبر على المنية حتى يراه مجددا.

وكعادة كل العائدين، بدأ فى فتح الحقائب، وتقسيم الهدايا، والنظر إليها مستطلعا مع كل هدية قبل وضعها فى مكانها، فقد تروق لها هدية ما. صار فى عينيها نظرة جديدة بها شيء من طمع؟؟ لا بل شعور بالجدارة والاستحقاق، شعور بالأولوية والأفضلية، فهى شريكته فى هذه الغربة وأموالها.

قد أصبحا شريكين فى كل شيء إلا الذكريات، وكلما عاد أصبح على كل منهما تجديد استكشاف الآخر ومعرفة العادات التى اكتسبها كل منهما فى غيبة الآخر، وأن يحصى التجاعيد فى وجه الآخر.

كلما عاد لم يجدها ولم تجده، بل يجدان شخصين آخرين، زوجين غيرهما، بل وأبناء غير الأبناء، ويصبح العيد كلمة تهنئة مخطوطة بعجلة و"شيكا" وبضعة هدايا حملتها يد غريبة فى حقيبة مسافر ما.

وفجأة وكأنما هما على موعد، التقت عيونهما وقرأ كل من الآخر ما تعجز عنه الكلمات، وبنفس الخطوات المترددة الخجول التقيا، وفى العناق وجدا الوطن.

حبس انفرادی

رأت نفسها فى زنزانة منفردة، والظلام يحيط بها من كل جانب. ورأت فرحتها بانفراجة الباب عند دخول صينية الطعام الذى فقد مذاقه، فلم تكن فرحتها بالطعام، بل بشعاع الضوء المتسلل على استحياء من فرجة الباب.

صارت تنتظر الوجبات فى صبر وصمت فالضوء قادم لا محالة وسيأتى يوم تنفض عنها كل الأرزاء وسيملأ غرفتها الضوء.

وفى ذلك اليوم، وهى بانتظار الصينية المرتقبة انفتح الباب عن آخره، ورأته أمامها على غير ميعاد.

لم تدر ماذا فعلت؟ هل صرخت؟ هل ضحكت؟ هل هو حقا هنا بين يديها؟ هل طواها بين أحضانه؟ كانت ثملة بتلك اللحظات، ولم تحسب للأيام القادمة حسابا فى الذاكرة.

لم تدخر منها شيئا للغد. وها قد أتى الغد وعادت لزنزانتها .. تنتظر.



القرار

عادت إلى بيتها وهى تغتصب الابتسامة اغتصابا وتلصقها بشفتيها، فى حين عجزت عن غرس الفرح بعينيها. فقد حسمت أمرها ولن تخبره بتقرير الطبيب بحتمية الاستئصال. فالموت لا يأتى سوى مرة واحدة، قد يكون مباغتا وقد يكون بطيئا مؤلما، ولكنها قررت.

فإن لم يكن من الموت بد فلأمت قطعة واحدة، ولأمت أنثى كاملة بلا نقصان ــ ظاهر على الأقل.

حاولت أن تتعقل بل وأن تخيف نفسها من حجم الألم المنتظر إذا ما تحول الورم، وما أسهل تحوله فى هذا الجزء الحساس ــ عنوان أنوثتها. لكن حسابات أخرى كانت تدور فى ذهنها كرحى تطحن هواء، فهى تعلم نفسها جيدا وتعلم حجم غيرها عليه. وتعرفه أيضا، سوف يقسم لها أن حياها أغلى لديه من ذلك العضو الزائد عن الحاجة. وأنه يحب روحها لا جسدها، بل وقد ينجح فى إقناعها بالاستئصال، ولكن.

تلك ال "ولكن" حملت الكثير والكثير، فهى تعلم تمام العلم أن مع الاستئصال سوف تستأصل أشياء أخرى كثيرة، أدناها الثقة

بمظهرها وبجاذبيتها، هى تعلم أن تحولات نفسية كثيرة سوف تلم بها، سوف تصبح من الجبابرة بعد أن تصير من ذوى العاهات.

وقد تظل على نقائها، ولكنها ستدخل حربا أخرى لإثبات أنها لم ولن تتبدل، فتنعت بغرابة الأطوار وبالزيف والادعاء، سوف تحاول عدم ترجمة النظرات المصوبة نحوها بفضول تفتش عن الجزء المستأصل. سوف تغشى محلات الملابس النسائية وتهمس فى أذن البائعة بالنوع الملائم لها من حمالات الصدر، ثم تشيح بوجهها بسرعة وحذر كى لا ترى نظرة الإشفاق والتفهم فى عين البائعة، وتتلفت متوجسة ألا يكون صوتها قد خانها فأصابته رعشة ارتفعت به نحو آذان متطفلة.

سوف تخجل من تبديل ملابسها أمامه وسوف تنزع كل المرايا من غرفة نومهما ومن الحمام. سوف تمر على أثر الجرح بسرعة وهى تستحم كى لا تفتقده، مئات من ال"سوف" تطوف بعقلها.

"لا، فلأسترح من كل هذا العناء فلن أخبره بنتيجة الفحص، سوف أخبره أن كل شيء على ما يرام كى لا يقحم نفسه فى قرار هو ملك لى وحدى، وليذهب الطب والأطباء إلى الجحيم".

فلتحيا مثل جداتها الأوليات قبل التقدم العلمى والفحوص، ولتمت مثلهن بنفس مطمئنة راضية بقضاء الله. ولكن خوفا ما غشيها، أن يقرأ روحها كما عودها، فتمسكت بابتسامتها ببسالة وهى ترقب الباب وترهف سمعها لصوت المفتاح.

ملل



اقترب منها مكشرا عن أنيابه مزمجرا غاضبا مهتاجا مغتاظا. أما هى فقد انكمشت مفزعة مروعة ترتعد فرقا ورعبا.

لم يطلها، لم يستطع الوصول إليها، حاول بكل قوته لكن الطوق اللعين منعه تارة وأرخى نحوها تارة أخرى، أما هى فلم تقدر على الحركة، شلها الخوف وسمرها فى مكانها.

ارتدت أذناه للخلف مع تصلب فكيه المفتوحين فى نباح هائج ملتاث، أما هى فارتدت أذناها للخلف رعبا وتحديا فى آن معا.

معركة غير متكافئة ومكبوحة عن البدء الفعلى بين كلب الحراسة الضخم فى تلك المنطقة العسكرية المتاخمة للجامعة، وبين هريرة صغيرة انكمشت بين تلك الأعشاب على مقربة منه.

وبين غيظ وخوف متبادلين، وقفت يد غليظة قوية ممسكة بالطوق ومن فوقها عين منتشية بما تراه .

تلك العين المتلذذة فى سادية ليست أصيلة فيها، ها قد وجدت أخيرا ما يقطع تلك الساعات الطوال فى حدث لا يحدث، ويزداد الملل فيرخى صاحبها الطوق قليلا، ثم يعود ويجذبه بقسوة بعيدا عن الهريرة، لا رحمة بها بل نكاية فى الكلب المهتاج. وكادت اللعبة أن تصبح مملة هى الأخرى لولاها هى.

تلك الحسناء المعتادة على التريض فى هذه الساعة، أحكم قبضته على الطوق مزهوا بقوته القادرة على كبح هذا الكلب الهائج، فما كان من الكلب إلا المزيد من الهياج والنباح المجنون الذى اخترق سماعتى "الووكمان" لتلتفت هى فترى ما يروعها.

ولكنها لم تفزع ولم تخف، بحركة سريعة نزعت السماعات وركضت نحو مسرح الجريمة صارخة مؤنبة قائلة: "حرام عليك". وانتزعت الهرة من أمام الوحشين الهائج منهما والبارد، ومضت بها نحو الجزيرة التى تتوسط الشارع بعيدا عنهما، لكن جنديا آخر لحها، فلحق بها مسرعا مستفسرا بل متحفزا، إذ كيف تجسر على انتهاك منطقة عسكرية بل وأن تأخذ منها شيئا؟!

وبكلمات غاضبة انطلقت من فمها فى تلاحق أسرع من مدفعه الرشاش، فهم الأمر وعاد إلى مربعه وهو يبادل زميله نفس النظرات الضجرة الساخطة، المنتظرة.

أما هى فمضت فى طريقها وفى ذهنها سؤال واحد... لماذا؟

لوحة سيريالية



وقف يتأمل لوحة الفنان الشهير الذى التف حوله الجمهور، وقد انتفخت أوداجه وانتفش فى حلته التى لا تختلف كثيرا عن اللوحة المعروضة فى تنافر ألوانها ولا معقوليتها، وكان يلقى على الحضور شرحا مستفيضا حول معنى اللوحة وإحساسه بها والمعاناة التى شعر بها حتى خرجت للنور.

فكان يصغى له ويتأمل اللوحة عساه يجد رابطا ما بين ما يحكيه ذلك الفنان ذو المقام العالى وما يراه أمامه على الجدار، ولكنه سرعان ما انصرف عن مطالعة اللوحة وكف عن الاستماع لكلمات ذلك الفنان المكررة، والتى لا يتغير فيها إلا اسم اللوحة فى كل معرض جديد. انصرف عنه ليتأمل تلك اللوحة الحية التى أمامه والتى تزداد تفاصيلها مع كل معرض يقام، حيث تتسع القاعة أكثر فأكثر، وتزدحم بالرواد مع كل"بينالى"، وذلك بفعل الماكينة الإعلامية التى تلهج بالثناء عليه وعلى عبقريته الفذة.

وعبثا حاول تذوق شيئا من عمل ذلك الفنان دون جدوى، ولم تختلف لوحة هذا العام والتى فازت بالجائزة عن سابقاتها فى شيء، فقد زخرت بالخطوط المتباينة فلا تدرى لها استقامة من اعوجاج، كما حفلت بالألوان المتنافرة الخالية من أى جمال أو ذوق مثلها فى ذلك مثل الجمهور الذى انهمك فى استعراضه ومتابعته، بل واستراق السمع أحيانا.

ففى طرف قصى من القاعة انتحى عاشقان جانبا وقد بدا على الشاب من ثرثرته المتواصلة محاولاته المستميتة لإبهار الفتاة والتى بدورها استماتت فى إخفاء ضجرها والظهور بمظهر المفتتن بما يقول. وعلى جانب آخر رهط من الشباب الجامعى المتثاقف، الذين جاءوا لمتابعة الفنان العظيم والاطلاع على آخر إنتاجه، ثم بضعة وجوه مألوفة متناثرة هنا وهناك من صغار الفنانين والنقاد المأجورين ووجوه المجتمع التى لا يربط بينها سوى حب الظهور فى معية المثقفين والفنانين. كما لاحظ وجود حسناء خشنة المظهر تتحرك هنا وهناك بصورة لافتة للنظر، وكأنما تتجاهل حسنها وتهمل هندامها لتعود وتبحث عن سبيل آخر للفت الأنظار والظهور بمظهر النساك ذوى الاهتمامات الجادة.

بيد أن أكثر ما لفت انتباهه أن السواد الأعظم من الحاضرين كان من فئة محدثى النعمة، وكان هؤلاء هم الأكثر التصاقا والأكثر حرصا على الإصغاء والمتابعة ومن ثم ادعاء الفهم وإبداء الإعجاب باللوحة المذكورة.

وحين أمعن النظر مجددا، تراءت له اللوحة وقد هبطت عن الجدار وتماهت مع الجمهور فصارا شيئا واحدا. خليط متنافر لا نسيج يحكمه. وأحس بغربة عن المكان وكاد يشك فى ذوقه بل وفى عقله، فهل يعقل أن تكون تلك اللوحة التى يراها الجميع ذروة الإبداع وآية الجمال هى نفسها اللوحة المرتسمة أمامه؟!! هل يحتاج إلى نظارات؟! بل هل يحتاج إلى ذائقة جديدة تعينه على الإحساس بها مثل الآخرين؟ !

ولم يخرج من صخب أفكاره إلا على تصفيق الجمهور وهو يحيى الفنان حين فرغ من محاضرته، وتناهى إلى سمعه همسة من أحد الحاضرين للواقف بجواره بأن يصفق كى لا يتهم بعدم الفهم.

فى تلك اللحظة فقط عادت إليه روحه، وتذكر مبتسما تلك القصة التى قرأها صغيرا، عن الملك الذى وقع ضحية حيلة اثنين من المحتالين ــ وأقنعاه بأن لديهما ثوبا لا يراه إلا الأذكياء، وكيف أن الملك خاف أن يعرف الناس أنه لا يرى شيئا فيضيع ملكه، ولم يدر ألا أحد يمكنه رؤية الهواء، وخرج متبخترا فى موكبه عريانا ليهتف الشعب بجمال ثوبه ــ وكاد يضحك مقهقها حين وصل بالذكرى إلى عبارة: "إن الملك عريان".

وانصرف وهو يهمس لنفسه راضيا: "حقا، إن الملك عريان".

الشهاب

هناك فى آخر صفوف الدرجة الثالثة كان يجلس وحيدا بعد انتهاء المباراة بفترة، وكعادته لم يبرح مكانه بعد المباراة وحفل الختام، فقد كان يكره التزاحم ولم تعد سنه تسمح له بتلك الأكتاف التى كان يتلقاها فيما مضى دون أن تؤثر فيه والتى لم تكن تسقطه أو تحيد به عن هدفه.

إيه، يا لها من أيام. هل كانت له أيام؟ هكذا تساءل بينه وبين نفسه .

أحقا كانت له أمجاد؟؟ ومتى كانت؟؟؟

هل أخذ فرصته يوما وسط اللاعبين الكبار؟؟

نعم، بل لا.

كاد أن يأخذها يوما، حينما بدأ نجمه فى البزوغ وسط صفوف اللاعبين الكبار الذين احتلوا العروش لسنوات تجاوزت المسموح به . لا عجب حينها أن الرياضة كانت فى انحدار، وقيل عنه فى تلك الأيام إنه الأمل المنشود للنهوض بمجال الرياضة لو أتيحت له الفرصة، وقد واتته بالفعل، يوم أن امتنع النجم الكبير عن المشاركة فى مباراة حاسمة ليضغط على النادى كى يزيد مكافأته .

ولولا عناد المدرب لظل فى مقاعد الاحتياط إلى الأبد والذى قال يومها: "أنا ما حدش يلوى دراعى، إن كان هو الكابتن، فانا

الكوتش. بميت جنيه أجيب أى عيل من حوارى مصر يلعب بداله ويكسب الماتش، ويجيب اجوان".

وتراشق الاثنان بالتصريحات النارية على صفحات الرياضة فى كافة الصحف والمجلات، وأصبح غياب الكابتن وغضبة المدرب حديث الساعة، بتشجيع من إدارة النادى التى اهتبلت الفرصة لكسر أنف النجم الذى "ساق فيها" على حد قولهم.

وهكذا تورط المدرب الكبير فى وعيد لا فكاك منه، وهو الإتيان بالبديل، وبشرط أن يكون من المغمورين، كى يصبح الإذلال كاملا. والتفت ليرى ذلك الفتى المفتول العضلات وكأنما يراه للمرة الأولى، وتذكر كيف جمع بين براعة الهجوم والدفاع فى آن معا. كما أوتى القدرة على "الترقيص" وصنع الألعاب، بل وكان سريعا ينطلق كالصاروخ والكرة ملاصقة لقدمه تارة، وسابقة إياه كالحبيبة المنتظرة أن يدركها، فيوافيها أينما حلت ويلحق بها قبل غيره من المنازعين. كان يظهر كل هذه المهارات فى التدريبات التى كان يستخدم فيها مع غيره من لاعبى الصف الثانى كأدوات للتدريب ليس إلا، يتدربون ويتدربون ومن ثم يقعدون على مقاعد الاحتياط كى يستمر بريق النجوم الكبار فى اللمعان.

كان هو وأمثاله أقمارا وكواكبا تدور فى أفلاك تلك النجوم، وعند اللزوم قد يكلف أحدهم برعاية حقائب هؤلاء النجوم الرياضية، ويا له من شرف لو لاحت خصلة من شعره فى صورة جماعية للفريق أو طرف من جبينه خلف هذا النجم أو ذاك.

ومضت به الذكرى حتى اللحظة التى سمع فيها صوت المدرب وهو يقول: ""انت يا بنى، انت اسمك ايه؟"وتذكر خفقات قلبه المتلاحقة وتلعثمه وتلفته يمينا ويسارا عله يقصد غيره، ولما أيقن أنه المعنى رد بصوت شبه مسموع وبأنفاس تظنها متقطعة من مشقة التدريب قائلا: ""ياسر، اسمى ياسرعبد المنعم يا كوتش"". وعندها صمت المدرب للحظات دارت فيها ألف خاطرة برأس ياسر المسكين كلها لا تدعو للتفاؤل، ولم يدر أنه كان يفتش له عن اسم شهرة، والذى هتف بغتة: ""شهاب، انت الشهاب من هنا ورايح، حاتلعب الماتش الجاى مطرح الكابتن، اتفقنا؟؟ عاوزك تطول رقبتى".

وتركه دون أن ينتظر منه الإجابة، فهل يمكن أن تكون هناك إجابة غير الموافقة!؟

وجاء يوم الفصل، ياله من يوم لم ينسه أبدا، بل يا لها من لحظة لن ينساها أبدا، لحظة تسجيله الهدف الأول فى الدقيقة الثالثة من المباراة، وكأنما نزل لكى يسجل الأهداف وحسب. تذكر كيف كان يستثمر نقاط القوة فى زملائه، ويتجنب عيوب زملائه الذين يتابعهم منذ طفولته.

عجبا لقد أصبحوا زملاءه!! هؤلاء" الكباتن"" الذين لا يجرؤ على ذكر اسم الواحد منهم مجردا بينه وبين نفسه بدون أن يقول ""الكابتن"" فلان، هاهم يصبحون زملاءه!

وكما هو متوقع، فاز النادى بالمباراة، وللمزيد من الإذلال للنجم الكبير أخرجه المدرب من التشكيل ووضع ياسرا بدلا منه، كى

يضمن فوزا سهلا ويجدد شباب هذه الفرقة من الكهول الذين وجب عليهم التقاعد منذ فترة.

ولمع الشهاب وصار وميضه يخطف الأبصار، ولكن لكل شهاب سقوط، وما بريق الشهب إلا احتراق أثناء السقوط، كى تبرد بعد ذلك تماما.

وهنا اعتصر قلبه وتبدلت ملامحه وهو يتذكر كيف تمسك النادى بالنجم الكبير كى لايخسر نجما صنعه وصنع مجده، وكى لا يذهب باسمه الذى صار علامة تجارية إلى النادى المنافس، إلى هنا ولم يكن هناك ما يسوؤه، كان مكتفيا بأن يكون ضمن التشكيل الأساسى، ويتم الاستعانة به فى الأوقات الحرجة لإنقاذ مباراة حامية من براثن دقائق منتهية تسرع بها نحو الخسارة.

وهكذا بدأ يتأكد وجوده فى الملاعب فى الموسم الجديد، ودقت أجراس الخطر من كل جانب، فصناع النجوم لا يريدون تحمل مشقة ميلاد نجم جديد ولا تكاليفها، فالنجم القديم موجود وله معجبوه وجمهوره الذى يتابع أخباره ويتعاطف معه سواء بالحق أو بالباطل. لكن الخوف ظل معلقا فوق رؤوس الجميع حتى جاء اليوم الذى حسم فيه النجم الكبير أمره.

كان ذلك اليوم هو يوم التدريب قبل مباراة هامة مع النادى المنافس، وذلك عندما قام المدرب كعادته بتقسيم اللاعبين لمباراة وهمية بين أعضاء الفريق الواحد بنجومه وأفلاكها. وفى غفلة من المدرب، وببراعة معتادة ركل النجم الشهاب فى ركبته ركلة أسقطته

على الأرض سقطة لا قيام بعدها، أخرجته من الملاعب إلى الأبد. وعاد النجم ليحتل العرش لسنوات أخرى متكئا على نجوميته وجمهوره العريض المخلص.

ولأنه الشهاب... المولع بالكرة ولا يعرف له عشقا غيرها، حاول العودة إلى الملاعب ولكن من باب المدربين، ولم يع أن الإدراك السليم خانه وأنه قد فتح على نفسه أبواب جهنم، وأول تلك الأبواب لم يكن إلا "الكوتش". ذلك المدرب العتيق الذى لم تتبدل خططه منذ سنوات، ومعه أصحاب العمولات من استقدام المدربين الأجانب، وأوصدت كل الأبواب الرياضية فى وجهه ولم يجد له ملاذا سوى فى جريدة محلية من جرائد "بير السلم"، والتى تطبع ليقرأها محرروها وبعض من أقاربهم. أصبح يكتفى بارتداء فانلته القديمة ويجلس بها فى مقاعد المشجعين .

"كابتن شهاب؟؟"

أخرجه هذا الصوت الصبى المتعرف المتسائل فى الوقت ذاته — من أفكاره التى انتهى تسلسلها الرتيب المعتاد عقب كل مباراة، ورفع وجهه نحو الصوت ليجد شابا يافعا فى مثل العمر الذى بدأت عنده الذكرى، فابتسم فى وجهه بخجل وفرح دفين، ومضى الشاب يكلمه عن نفسه وعن حلمه بأن يصبح يوما ما مثله.

فابتسم له وقال أخيرا: "أوعى فى يوم حلمك ينطفى، خليك نجم واياك فى يوم تصبح شهاب. إياك تسيب لليأس مكان، وزق بكتفك

عشان تبان، وان حد حاول يوقفك أو يعطلك، انس اللعب الشريف وخليك بين الديابة ديب".

ثم نظر فى عينى الشاب ورأى الحيرة مرسومة على وجهه، فتأبطه بيد وبالأخرى تأبط كرته ونزل به إلى الملعب، ومن بعيد ولساعة متأخرة سُمع صوت يتردد بنبرة أشبه بأوامر القبطان بعبارات حازمة: "شوط جامد ... اجرى كمان، وقعت؟؟؟ قوم ... اجرى".

شارة البدء

انطلقت الجياد الأربعة حاملة فرسانها مع شارة البدء. انطلق كل فارس منهم بجواده فى اتجاه ما لتبدأ رحلتى.

وبدأ الشد فى لحظة، لحظة تلخصت فيها كل الآلام وانتهت عندها بالصدمة العصبية كما يسميها الأطباء فى أيامكم.

أخذت الحبال تحز فى الرسغين والكاحلين بعنف متزايد مع تسارع ركض الجياد كل فى وجهته، ولكى لا ينفصل الرسغ عن المعصم تم تعضيده بحبال ملتفة كالأفعى إلى ما فوق المرفقين.

وانطلق الألم نحو المرفقين ومن بعدهما نحو الكتفين، لم أدر أن أضلعى لها هذا القدر من الاتساع قبل تلك اللحظة، ولم أعرف كيف تحمل الفخذان كل هذا الانفراج، فقد اتخذا شكل الخط المستقيم قبيل تلك اللحظة.

صرت وأطرافى نشكل مستطيلا من العذاب والألم، ثم تسارعت الجياد فى سباق محموم نحو نهايات أربع، وللفارس الذى يظفر بالجسد الجائزة.

وانخلع الذراع الأيمن، ذهب وترك خلفه دماء منبجسة من العروق والعضلات التى هتكت، ومن بعده انخلع الذراع الأيسر وقبل أن أستوعب الألم لحقت بهما الساق اليسرى، وكأنما هى دائرة عذاب

يجب إحكام إغلاقها، وبقيت الساق اليمنى تأبى الانفصال عن الجسد بعد أن انفردت بقوة الجذب فى اتجاه أوحد، وسحلت جسدى معها طويلا.

لم يسعفنى الوقت ولا القوة أن أصرخ، ولا أن أستعطف أحدا. فكل جواد ركض كأنما يفر من الموت كى يلحق بى وحدى، مع شارة البدء.

بروجيكتور



فى تلك الحجرة المنعزلة، أطفأت الأنوار لتنير هى حياتى بلقطات متقطعة على حائط الوهم. أدرت البروجكتور القابع بجوارى، ذلك الشاهد الصامت والخل الوفى الذى لا ينطق ولايصدر صوتا سوى تكات متفرقة غير منتظمة.

لكم أحبه رغم قدمه، بل وأفضله على تلك الأفلام السينمائية وشرائط الفيديو والقنوات الفضائية والأفلام ""الأونلاين"" و""التورنت"" وكل تلك المظاهر العصرية التى تحمل بطياقا إيقاع العصر المجنون.

أحيانا يختلط على الأمر فلا أدرى هل أحبه من أجلها أم أننى أحبه بالفعل، وأن المزايا التى أراها فيه هل هى حقيقية أم أننى أخلعها عليه؟

هو ليس كالسينما يعرض لك فيلما كاملا بحلوه ومره، بل يعرض لك شرائح تضعها دون أن يزعجك بأزيز الشريط الدائر كما تفعل ماكينة عرض الفيلم السينمائى.

لقطات متقطعة هى أبدع ما قمت بالتقاطه لها وهى تضحك أو تزيح خصلة من شعرها، أو تشير بإصبعها فى إنذار ضاحك ألا ألتقط لها صورة وهى تلعق آخر نقطة آيس كريم بقعر الكأس مستعينة بنفس الإصبع المذكور.

يمكنك أن تتوقف ما شئت من الوقت عند كل لقطة. وأن تملأ عينيك منها حتى تشبع روحك، يمكنك أن تتجاهل فواصل الصور الباكية والغاضبة رغم تزاحمها فى ذهنك، وأن تسرح مثلى فى خيال لذيذ مع تلك اللقطات المثالية، وترتشف ما شئت من حلاوة الذكرى.

ليت حياتى كانت مجرد "بروجيكتور" أضع فيه ما شئت من الشرائح التى تجمعنا، وأنفى كل تلك اللقطات الواقعية المؤلمة. فأمسح من ذاكرتى لحظة فراقها، ويوم زفافها، وأن أنسى يوم وفاها، يوم أن بكيت سرا كى لا يعلم أحد كم كنت أحبها فيجرح سيرة ينبغى أن تظل عاطرة.

انتهت الشرائح ولم تنته الذكرى، ولمست بيدى "البروجيكتور" فوجدته ساخنا فأشفقت عليه وأطفأته، لأغرق لثوان كالدهر فى الظلام وأدير مفتاح النور الزائف، بعد أن غاب نور حياتى وظلاله بغياب آخر لمحة منها.

صفعة مؤجلة

هوت بيدها على خده البريء، ثم....

أجل، خواء رهيب ملأ كيانها، لا بل زحام من الأفكار التى اجتاحتها كموجة عارمة من بحر غضبها الصاخب الساخط.

وكعادتها انزوت فى ركن كى تفتش فى أعماقها عن سر ذلك الغضب، والأهم من ذلك، عن سر تلك الرغبة المحمومة فى صفعه على خده البريء.

تذكرت قسمها منذ كانت طفلة ألا تضرب أولادها، وكيف برت بهذا القسم طوال فترة عملها فى رياض الأطفال، وها هى تحنث بيمينها للمرة الثانية.

تلك الثانية لم تكن لتأت لولا المرة الأولى التى ضربت فيها طفلا، بل طفلة.

سحقا، إلى متى ستنهار مبادئها الواحد تلو الآخر؟!

وعادت بالذاكرة لغور أعمق، لسنوات تتجاوز أصابع الكف بقليل، وتذكرت كيف تنازلت عن مبدأها الرافض لعمالة الأطفال وقبلت بوجود خادمة طفلة مقيمة، كى تعنى بالمهام اليومية المعتادة مثل غسيل الصحون وفتح الباب للطارق والرد على الهاتف. أجل لم تكن قاسية معها ولم تشقها بأعمال النظافة المرهقة، بل كانت تستعين بخادمة كهلة شهلة لشئون النظافة الدورية والتى تحتاج لقدرة بدنية

أشفقت عليها منها. أجل كانت رحيمة بها، تطعمها مما يطعمون، وتلبسها ما يليق بها ويسترها ولا يظهرها بمظهر الخادمة، إذ لم تكن تفعل كدأب ربات البيوت فى تعمد كسوة الخادمة بالرث من الثياب أو تلك التى تسبح فيها مهما قامت بتضييقها وتشمير أكمامها، بل كانت تأتى لها بما يناسب حجمها الضئيل، فلا تتعثر فى جلباب طويل أو تضطر لتمزيق ذيله كيفما اتفق.

أجل كانت رحيمة بها، تذكرت ودموعها الساخنة تنساب على خديها، ولم تدر أهى دموع غيظ منها أم ندم أم خجل من نفسها، تذكرت كيف قامت على خدمتها وهى مريضة ومصابة بترلة شعبية حادة لأنها كانت عنيدة وأصرت أن تمرض هى الأخرى كى لا تخدمها، فكادت تهلك تلك الصغيرة جراء إصابتها بالتهاب رئوى بسبب ذلك العناد الغبى ونومها فى ثياب مبللة رغم قساوة البرد فى تلك الليلة.

تذكرت كيف أحضرت لها طبيب الإسعاف آنذاك وقامت على خدمتها على الرغم من مرضها هى الأخرى، تذكرت كيف أحضرت لها الطبيب فى حين اكتفت بالنسبة لنفسها بسؤال الصيدلى عن مضاد حيوى مناسب لها.

أجل، كانت أرحم بها من نفسها إلى حين...

فى ذلك الحين، بعد كل تلك العناية بها، وحتى بعد أن بدأت تستحثها على تعلم القراءة والكتابة، وفى سبيل ذلك اشترت لها لوحة إرشادية بها الحروف الأبجدية، ولم تكن تنام قبل أن تمتحنها فى حرف

جديد مما تعلمته؛ بعد كل تلك العناية والرحمة بها جاء يوم لم ولن تنساه.

كانت مشغولة برعاية طفلها الرضيع، فجاءها ابنها الأكبر يطلب كوبا من الماء، كعادة الابن الأكبر حين يريد الاستحواذ على أمه وصرف انتباهها عن المولود المزاحم له فى ذلك الحضن الذى احتواه وحده لفترة هى الأسعد فى حياته. وحين شق عليها القيام، أمرته أن يذهب للخادمة كى تسقيه، ليعود بعدها صارخا متألما.

فى البداية، ارتابت أن تكون الخادمة لم تسقه، وأنه يبكى عطشا ووحشة، لكن الرائحة المنبعثة من فمه أفزعتها، كانت رائحة كلور تلك التى انبعثت من فمه.

هرعت إليها كالمجنونة وسألتها ماذا سقته؟ ولكنها أنكرت.

فتشت عن زجاجة الكلور وسألتها عنها، ولكنها أنكرت وجودها من الأصل، وقدمت لها زجاجة مختومة لم تفتح وهى تنكر أنه سقته شيئا.

صرخت فيها أنها متأكدة من وجود زجاجة أخرى كانت ملأى حتى ثلثها، وأخذت تصرخ أين أخفيت الزجاجة؟، وهى تفتش كالمحمومة فى المطبخ، وتطل من نافذته على المنورعلها تكون قد ألقتها.

كانت تريد التأكد من جريمتها التى تنكرها كى تتمكن من إسعاف الولد فى الوقت المناسب، ولكن زوجها لم يصبر كى يتأكد، بل اكتفى

بالرائحة النفاذة المنبعثة من فم الولد وهرع به نحو مركز السموم كى يسعفه.

أما هى فلم تهدأ حتى وجدت الزجاجة الفارغة ملقاة خلف دولاب عتيق فى ركن قصى فى المطبخ.

عندئذ جن جنونها، وأيقنت أنها أمام شيطان صغير يمكر ويحتال ويدبر ويقتل!!! فانبعث شيطانها الأكبر وأسمعتها من لواذع الكلم ما تقشعر له كلما تذكرته، كانت تصرخ فيها وهى تضربها وتجرجرها من شعرها، كانت لا تعرف السباب، لكنها تعرف جارح القول فأخذت تصرخ فيها قائلة: "يا مجرمة، أنت لا تساوين شيئا عند أهلك لذلك يرسلونك للخدمة فى البيوت، أما ابنى فهو قرة عينى، يا قاتلة... تريدين قتله وحرمانى منه.،،

وأخذت تضربها بعنف، وبدلا من أن تهدأ كانت ثورتها تزداد لأنها لم تفلح فى صفع تلك المشاكسة العنيدة على خدها الماكر. فقد كانت تغطى وجهها بكفيها الصغيرين ولا تحاول الهرب. كان كل همها ألا تتلقى صفعة على وجهها وإن تكسرت أضلاعها وسحقت تحت براثن الأم الثائرة.

وهنا تذكرت ولدها الحبيب وخده البريء المحمر من أثر صفعتها والذى كادت ترتكب جريمة قتل من أجله، فكانت الصفعة الأولى من نصيبه وتمنت بحرقة أن تكون الأخيرة، وأن تنسى ذلك الشعور البغيض بالارتياح بعد تلك الصفعة، فهل تكون الأخيرة؟؟؟

ظهر منحن



رأيته وهو يكاد ينكفئ على وجهه، كان مطأطئ الرأس حتى تكاد تلتصق بصدره، وبظهره انحناء يكاد يشكل زاوية قائمة مع ساقيه. هيه .. أنت ... يا هذا!!!

أشدد عودك يا رجل!!!

ولم يرد ولم يجبنى.

صحت به: ""يا هذا، أنت يا رجل، أقم عودك"".

ولا جدوى، وكأنه يزداد انحناء كلما هبت به أن يرفع رأسه، فتملكنى غيظ شديد وركبنى الحنق فتوجهت نحوه ووكزته فى جنبه. أنت؟! ألا تسمعنى؟؟!! إرفع رأسك وانظر إلىّ.

عجبا !! لكأنه لا يسمع !! بل لعله لا يهتم!!

بيد أن الغيظ والعناد تملكانى فأمسكت به من كتفيه أحاول إقامتهما بلا جدوى، لا بل ازداد انحناء حتى اقتربت رأسه من ركبتيه وخر جاثيا فى وضع جنينى متيبس، فجثوت بجانبه وأمسكت به محاولا تفحصه، وتوجست أن أجده قد فارق الحياة.

وبفضول وترقب حذر رفعت رأسه نحوى وراعنى ما رأيت.

طالعني وجه طفل رضيع وعينان تنظران نحوى بكل ما حولهما من براءة وطهر، وشفتان تحاولان الحركة.

يا الله!! ما هذا؟؟؟!!

هذا أنا!!!

زهايمر



لا أدرى لماذا تذكرته فجأة؟ بل لعلنى أدرى وأخجل من الاعتراف بالسبب. أمسكت بهاتفى المحمول وتوقفت أمام اسمه ريثما أتمالك نفسى ولكى أتحرر قليلا من غلواء تلك الانفعالات التى أصابتنى.

فلبرهة من الزمن انقبض صدرى وتخيلت تلك الجنازة ولا أحد فيها، حتى أنا لم أحضرها، كانت أشبه بالرؤيا التى جمعت بين شريط ذكريات وشريط لمواقف كثيرة قادمة، ففزعت.

فى كل مرة نفس الحوار بنفس المفردات تقريبا لم تتغير منذ قرابة الربع القرن، وأقفل الخط وأنا أتميز غيظا بعد أن كاد الصبر أن ينضب لولا الحياء الذى يمنعنى من الانفجار أو تجاهل المكالمة.

أما هذه المرة فلم يأتنى الاتصال، وبعد أن حمدت الله أنه لم يأت، ولأمر غير مفهوم استعدت الحوار المكرر وكأننى أعاقب نفسى أو كأننى مدمن يفتقد الجرعة، بيد أن الشريط تداخل مع شريط آخر غير ذلك الذى اعتدته، شريط لذكريات لم تحدث بعد، فتراءت أمامى الجنازة الخاوية، ونعى صغير فى صفحة وفيات من جريدة قديمة، تقع عليه عينى وأنا ألمع الزجاج بتلك الصفحة، ثم ندم هائل يعتصر قلبى بعد زوال الصدمة.

لا، لن أدع فرصة للندم، فلن يفرغ الصبر أبدا، بل لن أتركه يفرغ، فلن أحتمل طعم الندم أو الشعور بالتقصير حيث لا ينفع الندم، ورنت فى أذنى كلمة أمى وأنا أضغط الرقم "من لا يبك على وأنا حية فليوفر دموعه ساعة الممات".

وانتظرت على الهاتف واللهفة تزداد بداخلى والانقباض تلفحنى أنفاسه الثقيلة كوحش يعتصر فؤادى، يا له من انتظار غير محتمل.

فكلما مرت الثوانى، كلما علت نبرة التقريع فى أعماقى، ومع كل ذكرى طيبة أحملها له يتصاعد الخوف من الندم، حتى صارت المواقف التى آزرنى فيها ووقف إلى جانبى تتلاحق كالوميض الباهر كتلك التى تستخدم فى غرفة التحقيق مع المذنبين. تضرعت إلى الله عندئذ ألا يكون الأوان قد فات.

يا الله! لماذا لا يرد؟ سترك يا إلهى. يالها من ثوان ثقيلة كالدهر تعتصرنى، وتأهبت بالفعل لتلقى جزائى من الحسرة والندم الأبدى لولا فرج الله، فقد سمعت صوته أخيرا.

ألو؟! أستاذى العزيز؟ كيف حالك؟

...

أعتذر عن تلك الغيبة ولا عذر لى.

...

أجل كلنا بخير.

...

الأولاد بخير.

...

زوجى؟ لقد وجد عملا بفضل الله.

....

أنا بخير يا دكتور لا تقلق.

...

الولد الأصغر فى الجامعة الآن والبنت تتأهب لعرسها، وسوف نمر لنأخذك ليلتها.

....

لا، لم أنجب غيرهما.

......

زهير وعلياء.

....

أجل، عدت لعملى فقد انتهت إجازة الوضع منذ فترة طويلة.

...

مع السلامة ولاتحرمنا من دعواتك ونصائحك الغالية.

احتضار جبل



ترى الصدوع وهى تتسع فتحاول رأبها، يبدأ فى التفتت فتحاول لملمة الشظايا، تركض هنا وهناك فى محاولة لمنعه من التهاوى، تحقنه بالمقويات وتصلبه بالدعامات، تشعر بالأرض تهتز وتكذب نفسك، تحاول الثبات ولا يمكنك، فالأرض تهتز... إنها ترتج بك وبه.

تسقط صخرة كبيرة تكاد تقتلك، وتخرج منها بإصابة تعجزك، تكتفى بالتأمل والترقب، تتربص بعلامات الانهيار، وتكتفى بتأمله وهو يتفتت رويدا رويدا. يثبت قليلا فيراودك الأمل، ومن ثم يهتز فيعاودك الألم، كيف للجبل أن ينهار؟!!

تفكر فى الفرار كى تنجو بنفسك، تنصرف عن الفكرة وتبقى منتظرا مترقبا، لعل الهزات تتوقف، لكنها لا تتوقف.

ومع تفتت الصخور تتزايد الهزات، وكلما اشتدت الهزات تساقط المزيد من الصخور، وقبل أن تنتبه تحاصرك وتطبق عليك... ثم يأتى الزلزال فينهار الجبل عليك.

أكاذيب جدتي

بعد انتهاء الماشطة من مهمتها التى امتدت لساعات طوال، بدءا من القناع وانتهاء بطلاء الأظافر، والتى اضطرت لإعادة طلائها أكثر من مرة بسبب حركتى المستمرة التى لم تخل من خرق واش بما أنا عليه من توتر، وبعد إحكام ثوب الزفاف حول جسدى الذى فقد الكثير من وزنه فى الآونة الأخيرة، جاء دور "الطرحة".

حينئذ أصرت أمى أن تلبسنى إياها بنفسها رغم احتجاجات الماشطة المشفقة على جهدها من الضياع بعد ساعات طويلة من حمام الزيت والغسيل والتجفيف ومن ثم التصفيف، إلا أن عناد أمى أجبرها على الانصياع لرغبتها، فقد كان تقليدا موروثا فى العائلة أن طرحة الزفاف مسئولية أم العروس ونذر مضمر لا يجب الإخلال به، وهى فى واقع الأمر متطيرة من قطع تلك العادة معى فتكون فألا سيئا.

وفى المرآة التقت أعيننا وهى تهم بوضعها على رأسى، كان المنظر مدهشا لى إلى حد كبير وموحيا، فمع جلستى المذعنة وإحاطتها بى والطرحة مبسوطة بين يديها شعرت باحتوائها التام لى وكأننى أعود لرحمها. ومع طول التحديق عبر المرآة كدت أراها فى نفس جلستى تلك ومن خلفها جدتى ومن خلف جدتى أمها، وسلسلة لا تنقطع من الأمهات الممسكات بطرحة الزفاف، كصورة منعكسة لعدد لا متناه من المرات فى مرآتين متقابلتين.

ومع الدمعة المترقرقة فى عين أمى انجرفت وإياها فى تيار من الشجن والذكريات، وكأن جدتى تحوم بروحها حولنا فى قلق.

كيف لا وهى من تزوجت عن حب؟! فقد كان الحب مذهبها فى الحياة، عاشت تحكى لنا قصص الحب المستحيلة وتغنى لنا بصوتها الشائخ المحبب أغنية "يا حسن يا خولى الجنينة"، وحين نسألها ما معنى الخولى يا جدتى؟ تجيبنا بأنه الجناينى فتفتح على نفسها أبواب الحكايات إذ نغتنم الفرصة ونلح عليها أن تقصها علينا، فلا تجد بدا من البدء بحكاية الأميرة ست الحسن والجمال والشاطر حسن الفقير الغلبان، وتلتمع عيوننا وتخفق قلوبنا الخضراء ونحن نسمع سيرة عنترة العبد الأسود وقصة حبه لعبلة، ونظل على هذا الوضع فتحلق بنا من حكاية لحكاية حتى نغفو على سيرة الحب، وبداخل كل منا الحلم بتذوقه يوما.

وفى عينى أمى كدت ألمح نظرة معتذرة نادمة وهى تسترجع يوما كدت أنهى فيه حياتى.

يوم أن صادفت حب العمر الذى حلمت به طرت نحو جدتى فرحة بخفقات قلبى الأولى، كانت أول من عرف بالأمر ولعلها كانت أسعد منى.

لم تسألنى عن ظروفه أو عائلته، كان كل همها أن تعرف كيف أفصح لى عن حبه، فأخبرتها أنه اعترف بعد أن ضبطت صورتى مرسومة بريشته فى كشكوله واسمى يحيط بها على شكل قلب وفى طرفه الصغير اسمه وكأنه مجرد توقيع كعادة الفنانين.

فى ذلك اليوم صممت على النوم فى حضن جدتى، وسهرنا طول الليل نتهامس، ونخفى رأسينا تحت الغطاء بمرح طفولى كلما فتحت

أمى الباب علينا وترفع جدتى صوت غطيطها المصطنع حتى تقفل الباب وتنصرف، وذلك بعد أن عنفتنى على إرهاقى لجدتى بالسهر والثرثرة.

ولكن يبدو أن أمى كانت محقة فى غضبها، إذ لم تمض أيام على تلك اللحظات السعيدة حتى ساءت حالتها وفارقتنا، ولأمر ما بداخلى تطيرت وشعرت بأن قصة حبى تمضى إلى نهاية غير سعيدة بعكس حكايا جدتى.

وندت عنى زفرة حارة مصحوبة بغصة فى فؤادى وأنا أتذكر الرفض المهين من أهلى لحبيب العمر، لكم افتقدت جدتى فى تلك اللحظة، بل إننى بكيت منادية إياها كطفلة فى الخامسة من عمرها لا الخامسة والعشرين، وحين لم أجد حولى مؤازرا حاولت إنهاء حياتى.

وأمعنت التحديق فى عينى أمى لعلها تتذكر ما فعلوه بى آنذاك، فوجدتها تذكر جيدا ما حدث، ورغم تقديسها لأمها... جدتى، إلا أنها لن تسمح لى بتضييع مستقبلى مع شخص دون المستوى ولأخبط رأسى فى الحائط، فكان بديهيا أن أتسلل لحجرة جدتى المغلقة منذ وفاتها لأتناول كل ما وقع تحت يدى من الأدوية وأرقد فى سريرها بانتظار الخلاص من ذلك العذاب.

فى هذه اللحظة هوت أمى بالطرحة على رأسى وكأنها تفيقنى من غيبوبة الذكريات، لأرى نفسى عروسا جاوزت الثلاثين من العمر، تتزين لبدين أصلع، يليق بها.

لم يتزوجا يا جدتى الحبيبة... الكاذبة.

وفاة آدم

مد يده نحو الثمرة، جذبها وأكل نصفها وأعطاها النصف المتبقى، وما أن ابتلع القضمة الأولى حتى ارتج المكان، وهى الأخرى أصابها ما أصابه، ونظرت نحوه ونظر نحوها، فعرفا ما لم يعرفانه من قبل.

عرفا الخجل وعرفا الرعب وعرفا معنى الهلاك. وجاءهما الصوت الغاضب ومن بعده الرحمة والتوبة عليهما ولكن بشرط، أن اهبطا إلى الأرض ولتنسلا العداوة أبد الدهر.

وقف على باب الجنة حزينا لفراقها، إذ كيف أدت به وساوس الشيطان إلى هذه النهاية؟! كيف استجاب؟ وكيف ضعف؟ فعرف الحسرة وألم الفراق، وأمسك بيدها ليهبطا معا.

وهبطا حاملين معهما كل آيات الحياة من نصب وخوف ومن جحود وعصيان وأطماع، ومن ذرية بعضها لبعض عدو. وكانت الجنة فى مخيلته لم تفارقه، لم ينسها ولم ينس كيف كانت، ولكن الإنسان قُــدّ من نسيان، كيف لا وهو من نسى أمر ربه؟!

وتفرق بنوه فى الأرض ليعمروها، وكان يحكى لهم عن الجنة وعن إلههم الخالق الواحد، فيعدونه ويعاهدونه ثم يتولون ناسين أو مستهزئين به، فهو من جلب عليهم كل هذا! أنى له التذكرة وهو

أول الناسين؟ أنى لهم الطاعة وهو أول العصاة، ولولا تلك المعصية لما كانوا.

هم لم يروا الجنة، لم يعرفوا من الحياة إلا الحياة، فأحبوها بل عشقوها، وصار الموت عدوهم، فسوف يأخذهم للمجهول، لما لم يعرفوه إلا حكايا.

وإذا نحن معذورون يا أبي فلم نر أو نعرف سواها! ولكن ما عذرك أنت؟

سألوه: "لماذا تخشى الموت؟ ألست عائدا إليها؟ تلك التي حدثتنا عنها؟"

أجاب: "إنه الفراق يا أبنائي. قد أحببت الحياة وألفتها. إنه الفراق... فراقكم أنتم."

وعرف آخر الأشياء.

المقبرة

لم تنتحب ولم تنهر صارخة مولولة. لم يكن إيمانها بقضاء الله وحده العامل الرئيسى فى ثباتها، بل كان الانتظار. فكما يقال "وقوع البلا ولا انتظاره" واليأس إحدى الراحتين، وها قد استراح وأراح.

أخذت تلملم المتناثر من ثمين الأوراق والمستندات من الجوارير والأرفف، وهى تتذكر كم كان دائم الإهمال لتلك الأوراق، سندها الوحيد من بعده. ومضت تزيح فى قطع الآثاث كى تفسح مكانا للمغسل فلا يتلف لها المزيد من سجاجيد المترل وهو يقوم بواجبه الشرعى قبل دفنه.

ومع كل قطعة ثقيلة تزحزحها، كان ظهرها يكاد ينشطر ألما، فتغص نفسها بصحتها المهرقة طيلة فترة مرضه الأخير حين كانت تضطر لحمله حملا كى يقضى حاجته أو تحممه.

لكم أرهقها بطلباته وبعناده وتدلله كطفل حضين، والآن ها هى قد استراحت، بل ها هو قد استراح بعد خروج السر الإلهى الذى تأبى على الخروج لسنوات طويلة قضى معظمها وهو يبتهل إلى خالقه أن يسترد وديعته كى يرتاح من آلامه.

وبجهد جهيد قامت بتغيير الفراش بعد أن احتالت بتحريك جثته يمينا ويسارا مثلما كانت تفعل فى الأسبوع الأخير من مرضه. لم يختلف منظره كثيرا آنذاك اللهم من بعض الأنفاس المتحشرجة

والأنات المنسربة منه بين الفينة والأخرى عوضا عن احتجاجه الذى عودها عليه مع الكثير من الشكوى والقليل من الاعتذار عن سوء حالته التى أحوجته لإشقائها معه.

تركت جثته بعد أن ألقت عليها نظرة أخيرة وشرعت فى تنظيف المترل بسرعة كى لا تعيرها نسوة العائلة بالفوضى التى لم يعد لديها حجة تدفع بها عن نفسها مذمة الإهمال، وتذكرت حرجها واعتذاراها المتكررة للزوار المفاجئين بضيق وقتها وجهدها المستترفين فى خدمته.

كانت تلهث وتتصبب عرقا من المجهود، وتغيم عيناها بسائل لم تدر كنهه، أكان العرق المتصبب بغزارة من جبينها المكدود، أم كانت دموعا تفر حسرة عليه؟

ظلت تجول كالمحمومة فى حجرات المترل الذى اتسع فجأة، تلقى نظرة هنا ونظرة هناك وتتوقف عند المداخل لترى بعين الزائرين ما يمكن أن يلمحوه كى تسارع بهندمته، فالوقت يمر وعليها أن تفرغ من تلك المهمة قبل أن تبدأ بنشر الخبر، فقررت الاكتفاء بالعناية بالمدخل وتوسيعه بترحيل قطع الآثاث، وتنظيف حجرته بعد أن نقلت منها كل ما تخاف عليه من الأوراق ثم تذكرت أنها قامت بهذه المهمة بالفعل، ولم يتبق سوى المطبخ والحمام. إذ لا يسلم الأمر من تحضير القهوة، وعندئذ تذكرت أنها سوف تحتاج لكمية وافرة من البن والمناديل الورقية لزوم البكاء الحار على المتوفى، فبادرت بالاتصال بالبقال وهى تحاول التماسك لكى لا يتهدج صوتها وهى تملى عليه قائمة المشتروات المحدودة.

ولدهشتها فوجئت بالبقال وهو يقدم لها واجب العزاء فى ختام المكالمة، لكن دهشتها لم تدم لفترة طويلة، فقد خمنت أنه استنتج ما حدث من كمية البن والمناديل الورقية التى طلبتها منه، فقد عاشا فى تلك المنطقة لسنوات طويلة فصارا من علاماقا، وأمر الطلبات كان من مسئولياته المحدودة فى مقابل أعبائها غير المحدودة.

وعلى غير العادة حضر صبى البقال بالطلبات مسرعا، فقد كانت تخشى أن يتلكأ كعادته فلا تجد الوقت الكافى كى تستحم وتبدل ثيابها، فقد أوصتها أمها قديما ألا تجعل من نفسها فرجة للناس عند الحزن، وألا يكون الحزن مسوغا للذهول عن النفس. فلتطب أمها نفسا فى مثواها، فهى لم تنس ما علمتها إياه.

وعلى عجل انتهت من حمامها ومن تجفيف شعرها المبتل، ثم التفتت لصورها فوجدت أنها بحاجة لتهذيب حاجبيها المهملين منذ فترة ليست بالقصيرة. وفى المرآة انطبعت أمامها صورة استغربتها. صورة مليئة بالخطوط والتجاعيد، وسواد يحيط بالعينين المنهكتين من طول السهر، وبريق منطفئ ما عاد يشع من عينيها، وفم لاهث نصف مفتوح بعد أن ضاق الصدر بأنفاسه المهمومة.

لم تشأ الاسترسال فى تأمل صورها بعد أن وجدت نفسها تتنقل بين الحسرة على شبابها الضائع وبين الحسرة عليه ككرة المضرب فى مباراة حامية، فالأحزان لاعب ماهر يجيد العبث بقلبها وإرسالها من ذكرى لأخرى وهى التى ينبغى عليها التماسك فى اللحظة الراهنة كى لا تفقد تركيزها فيشمت بها الشامتون، لذا فقد مضت نحو خزانة

الملابس لتخرج الطقم الأسود وحمدت الله أنها أرسلته منذ أيام للكواء رغم الاستهجان الذى تلقته منه وفى عينيه ما يشبه الاتهام بأنها تتعجل الخلاص منه وأن فى ذلك فألا سيئا، لكن الأيام أثبتت أنها كانت محقة فى تفكيرها العملى وألا مجال للعواطف الآن.

ها هى قد انتهت أخيرا من مهمتها وقد آن الأوان لتسليم الأمانة، فكرامة الميت دفنه، ولكى يدفن عليها أن تجرى الاتصالات المطلوبة كى تعلم العائلة والأصدقاء بالأمر ولكى يتولوا إحضار الحانوتى وتصريح الدفن بمقابر العائلة، فأمسكت بمفكرة الهاتف وأخذت تتصل بهم دون أن تلقى نظرة على الأرقام التى تحفظها، وتعجبت من نفسها لم تمسك بها إذن؟! ولكنها كانت تخشى أن يفوتها اسم فلا تتصل بصاحبه وعندئذ تتعرض للوم، وهى بغنى عنه فقد نالت كفايتها من حذلقتهم وتعديلاتهم دون أن يمد إليها أيهم يد المساعدة.

ومع آخر اتصال كان جرس الباب يدق ليبدأ وصول أول المتفجعين لموته، فتركت الباب مفتوحا ومعه شريط بصوت واحد من المقرئين الجدد الذين لا تستسيغهم، ولكنها لم تجد غيره فى السوق حين كانت تعد العدة لهذا اليوم، تركته دائرا بصوت يكفى لإسماع الجيران فتعفى نفسها من مئونة إبلاغهم، فهى ليست من هؤلاء النسوة اللاتى يعلن عن الوفاة بالعويل والنحيب، وإن هى إلا ساعة حتى امتلأ البيت بهم وبهن، والتزاما بحقه الأخير فى خدمته تولت هى أمر القهوة بنفسها حتى فرغ المغسلون من غسله وصارت الجنازة جاهزة للإقلاع.

تحرت جيدا ألا تنسى مفتاح الباب قبل أن تخرج مع المشيعين وأن تتمم على كل النوافذ والأضواء والغاز، إذ لا يجب أن يذهلها الحزن عن الحيطة والحذر.

وبالرغم من إلحاح الكثيرين عليها فى القيام بتوصيلها إلا أنها قادت سيارتها فى آخر صفوف الموكب المتجه للمقابر، فهى لم تعتد أن يكون لأحد فضل عليها، ولن تفتح لأحد هذا الباب الآن. بل إنها عرضت على بعضهن أن يأتين معها من باب التوسعة على أنفسهن فى وسيلة الانتقال من المسجد المتاخم للمنزل ـــ حيث قاموا بالصلاة عليه ـــ للمقابر التى تجاور القلعة.

وهناك، فى المقابر، وجدتها تغص بالحياة وبالناس الذين لم يسعدهم الحظ بالعثور على مسكن ملائم، وتشممت رائحة الطعام تملأ الأجواء، وامتلأت أذناها بأصوات المسلسلات والأفلام المنبعثة من هنا وهناك، بل وتناهى إلى سمعها أصوات مختلطة من قنوات روتانا والجزيرة، فرفعت بصرها لترى بضعة أطباق لاقطة والكثير من هوائيات الاستقبال فوق أسطح المقابر الصاخبة.

وحين فتحت المقبرة همت بعض النسوة بالصراخ وحاولن اللحاق بالرجال الحاملين للنعش، ولكنهم منعوهن كى لا يجرحن المتوفى، أما هى فقد أخذت تتنقل بينهن معاتبة لائمة على هذا المسلك المخالف لشرع الله، ولعلها كانت المرة الأولى التى تبدأ فى اللوم، فكن يصمتن خجلا وهن يرين فى عينيها سؤالا حبيسا عن جدوى بكائهن الآن، وأين كن من قبل نفاد الأجل، وعلى شفتيها عبارة خافتة أن يدعين له بالرحمة بدلا من تلك العادات الجاهلية.

وبعد إهالة التراب على قبره، انصرف كل فى وجهته استعدادا للقاء فى اليوم التالى فى دار المناسبات التى حجزوها، وانصرفت هى الأخرى بعد أن انصرم النهار الذى بدأ فجره بوفاته وامتدت مهمتها فى التنظيف والاستعداد حتى الشروق ومن بعده الظهر والعصر، ولم تدر كيف مر الوقت بهذه السرعة ما بين هذه الساعة وتلك؟!

وفى طريق العودة كانت الشمس قد غابت تماما، وانتهى يومها الذى انتظرته مشفقة، ومع الإقامة الأخيرة لصلاة العشاء، ، كانت قد عادت إلى البيت لتفتح الباب فلم تجد غير الظلام والصمت التام.... صمت القبور!!

نحلة

ألقى برهانه وانتظر عجلة الروليت، وحدق فيها شاردا، لم يكن يهمه المكسب أو الخسارة، فهو ميسور الحال وتلاله لاتختل مهما أخذ منها، لكنه شعور متمكن منه منذ كان طفلا.

إيه... لقد دارت أيامه ومازالت تدور مثل تلك العجلة. فى طفولته كان مولعا بلعبة النحلة، كان يطلقها مرات ومرات ويظل يتأمل فيها بالساعات دونما أى شعور بالملل، إذ ابتكر لنفسها لعبة مصاحبة وهى التخمين، فيراهن نفسه فى كل مرة رهانين... متى وأين ستتوقف النحلة؟

وأسلمته تلك العادة فى طفولته لاتهامات من لم يفهمه من العائلة والأصدقاء، فتارة ينعته البعض بغرابة الأطوار وتارة ينعته البعض الآخر بالتخلف، ولو سمعوا آنذاك بمرض التوحد لتحذلق البعض واتهمه به ولأقيمت مناحة مسبقة فى البيت، ولقامت حروب عائلية بين أبويه حول عرضه على طبيب نفسى، حمد ربه فى سره وابتسم أنهم لم يسمعوا بذلك المرض وقتها وابتسم لنفسه وهو يتخيل تلك المعارك التى لم تحدث.

واتسعت ابتسامته الشاردة ليشرد أكثر وأكثر، هاهو يبتسم لنفسه كما اعتاد فى طفولته، ترى هل يتهمه المحيطون بالجنون الآن

كما اتهم مرارا فى طفولته؟ وهنا كادت تفلت منه ضحكة مستهزئة لما يعرفه عن البشر من جبن، فمن ذا الذى سيجرؤ على نعته بالجنون بعد كل ما وصل إليه من شهرة ومال، بل وعلم كذلك؟!

هاهى تدور، لم تتوقف بعد، وهاهو يحدق فيها كالمنوم ويسترسل فى تأملاته وذكرياته، وعاوده حنين لأيام النحلة وكيف كانت أقداره تميل مثلها حتى يخالها النهاية، ثم تعتدل بدون توقع لتستمر فى الدوران والانطلاق نحو هدف عشوائى، بل يظنه البعض عشوائيا. لعل لتلك النحلة التى شغف بها فى طفولته الفضل الأكبر فى عشقه للرياضيات ودراسة قوانين الحركة.

وكلما بدت الحركة عشوائية وخاضعة للصدفة، كلما شعر بالتحدى والإثارة لإثبات العكس، فبرز وبز الجميع منذ صباه المبكر فى علوم الرياضيات التى عشقها وقرأ فيها مثلما تقرأ المراهقات الروايات الحالمة وقصص الحب ذات النهايات السعيدة، وحين وصل تداعى الأفكار به نحو الحب أصابه شجن وانقباض، فقد تذكر حبه الأول وكيف كان التحدى الذى خرج عن سيطرة عقله الفذ وعلومه التى حصلها وكانت تؤهله لنيل درجة الدكتوراة لو أتيح له التقدم لنيلها مباشرة من الجامعة كما يحدث فى البلدان المتقدمة، ولكنه اضطر للصبر على سنوات الدراسة العقيمة كى يتمكن من التحليق فى بلاد العلم والعلماء.

وفى ميلة أخرى للأقدار لم يتمكن من الطيران وظل فى بلاده حين أدرك أن قلبه يثبته فى ترابها، لكم يحقد على قانون الجاذبية الذى

يجبرنا على فعل الكثير حتى ننتصر عليه، ولكنه يظل القانون الأكثر رسوخا وتحققا. ولكن بقاءه فى بلاده كان كميلة النحلة ومعاودة انطلاقها، إذ لم يكتف بدراسة الرياضيات التطبيقية فجمع بين دراستها ودراسة الرياضيات البحتة وعلوم الإحصاء والفيزياء ومعها علوم الحاسب الآلى.

تذكر كيف بلغ شغفه بالتحدى والتخمين الدرجة التى كانت تجعله يضع العوائق فى أماكن مختارة وهو صبى لتلك النحلة التى يعشقها، ثم يقبع مكانه فى صبر حتى تفرغ من دورانها، ثم يروع أهله بصرخة فرح لم يستوعبوا سببها قط، وهى ببساطة شديدة صرخة انتصار من استطاع تخمين ما لا يخمن.

وابتسم مجددا وهو يعود بذاكرته لملامح أبيه المندهشة حين طلب منه أن يهديه ساعة إيقاف عندما نجح فى امتحانات الشهادة الإعدادية، فمع الساعة والمسطرة التى لم تكن تفارقه وخيط يستعيض به عن الفرجار كان يمكنه حساب موعد توقف النحلة ومكانها، لكنه لم يتمكن أبدا من حساب نبضات قلبه حين كان يراها، ومتى سيكف عن هذا الصخب؟ فقد كانت المعادلة مجهولة من عدة أطراف لا من طرف أو طرفين، إذ لم يعرف متى أحبها، ولم يدر لم أحبها، ولم يصارحها أبدا بذلك الحب، فظل شعورها نحوه مجهولا رئيسيا لا يمكنه معرفته أو حسابه. وبقى يلف حول قلبه بلا هدف حتى فرقت الأيام بينهما بغياب تام ومفاجئ، لتبقى المعادلة كما هى عصية على الحل أو الاشتقاق.

لكن غيابها صار بالنسبة له مجرد ميلة من تلك الميلات التى تحرف مسار النحلة ولا توقفها، فهو على أية حال لم يكن مقتنعا بالارتباط بامرأة ما لمجرد أن قلبه خانه ومال نحوها دون إرادة منه، فإذا كان للقلب أحكام، فهى لا تسرى عليه، فتلك دولة خالية من القوانين وهو بالتالى ليس مواطنا فيها ولا يعترف بها ويرفض الخضوع لأحكامها المتعسفة الخالية من المنطق.

وعاد ببصره وفكره للروليت ثم تفرس فى الوجوه العالقة بها لتذكره الأنفاس المحتبسة فى الصدور المتحلقة حولها بنحلته الحبيبة، حين كان يغلق النوافذ درءا لنسمة متسللة قد تغير من حساباته، ولكن بابا يفتح على حين غرة أو عنوة من أحد والديه أو إخوته كان كفيلا بهدم التجربة من أساسها، وكأنهم رسل من القدر المشاغب الساخر دوما منه ومن حساباته كسخرية أقرانه منه فى طفولته وصباه واتهامهم له بالشذوذ والتخلف العقلى.

وفى إحدى الانطلاقات المعهودة من نحلته اكتشف المحيطون أنهم بحضرة عبقرى، لكنه لم يكن مسئولا عن كشف ذلك السر الذى احتفظ به لنفسه طويلا، بل أمينة المكتبة فى المدرسة هى التى وشت به للمدرسين ولبعض المقربين من التلاميذ الذين كانوا يتندرون عليه بكلمة عبقرينو التى استوحوها من مجلات الأطفال التى لازموها وقت أن فارقهم ولازم النحلة والكتاب. تذكر كم سخط عليهم بسبب هذا اللقب الذى كان يقال إما إعجابا أو غيرة وحسدا، حسب القائل ونبرته. وكما أن أول الغيث قطر ثم ينهمر، انهالت عليه

الألقاب تباعا ولم تفارقه أبدا فمن نيوتن إلى لابلاس إلى أيزنبرج إلى أينشتاين، وبقى عبقرينو الأكثر التصاقا به وكأنها تهمة يلذ له ولهم تذكرها وبرهنة وجودها.

ومنذ تسرب الخبر عن تلك العبقرية تغير مسار حياته، ولكن فى المقابل تضاعف توتره من تلك العيون المحيطة والمتربصة به، وكأنها سهام توشك على الإيقاع به فى أية لحظة، وأقتلها بالنسبة له عيون الفضول الأبله، الفضول لذات الفضول لا فضول المعرفة الذى يقدسه ويعتبره مفتاح الإنسان لعوالمها. لكم أحاطوه بالأسئلة الغبية، والأدهى منها وأشد ثقلا... اضطراره للإجابة على أسئلتهم كى يترك وشأنه، بيد أن الأمور تغيرت بعد فترة وجيزة، ومل الناس من التحلق حوله واكتفوا بمتابعته فى مجالسهم عن بعد، ففى ذلك البعد فرصة لاغتيابه كيفما يحلو لهم.

تلك الغيبة كانت بمثابة انطلاقة جديدة لنحلته، وصاحبتها قوة دفع هائلة من تفوقه فى الثانوية العامة لتبدأ شهرته الحقيقية فى الجامعة وتستمر النحلة فى الدوران بسرعتها القصوى حتى تصطدم بحائط البعثات العلمية، فيرى فيها بريقا يعمى الأبصار عن مصير يعرفه جيدا مما يجعله يرفض السفر ويؤثر البقاء فى بلاده. وكما ترتد النحلة فى اتجاه مضاد مكتسبة قوة إضافية من اصطدامها بجسم يتحرك بسرعة، يرتد هو الآخر نحو حلم أكبر بالبقاء فى بلاده واستثمار علمه والاكتفاء بنشر رسائله العلمية فى الدوريات العلمية العالمية عن طريق المراسلة.

وهنا انحرفت به الذكرى لسفره لدولة خليجية بدلا من تلك الدولة المتقدمة، وكيف قيل عنه آنذاك إنه مادى وأن عبقريته وعلمه بريئان منه، لكن أحدا منهم لم يفهم مقصده، تماما مثل هؤلاء الذين كانوا يصمونه بالتخلف العقلى حين يرونه مع نخلته بالساعات صامتا متأملا ويحسبونه يلهو.

"أيتها الروليت الفاتنة، كم تشبهين رحلتى لتلك البلد الخليجى؟"، دارت هذه الكلمات بعقله وهو يتذكر اللغط الذى ثار حوله بعد عودته محملا بأموال تفوح منها رائحة النفط كى يحقق حلما رآه الكثيرون مفرط الغباء وضربا من المقامرة التى اعتادها فى أسفاره الخاصة لبلاد الغرب وفنادقها الصاخبة. كانوا يتحسرون على ذلك العبقرى الذى بدد عبقريته فى اكتناز المال كى يعود ويبدده فى رحلات هنا وهناك، ثم ازدادت تلك الحسرة بإعلانه قرار العودة لبلاده والبدء فى مشروع سوف يبتلع كل رأسماله. وأشار عليه المتعالمون ومدعو المعرفة ببواطن الأمور وحاجات السوق أن يضع أمواله فى البنك أو يفتح متجرا عملاقا، فكان يرمقهم ساخرا وفى ذهنه ما به.

كان يعلم وجهته جيدا ويدرك أن تلك العقول القاصرة المحدودة لن تستوعب فكرته عن الاستثمار الأمثل، فهناك من يستثمر أمواله فى الماس وهناك من يستثمرها فى الذهب، ولكن يبقى استثماره فيما هو الأغلى والأنفس، فهل هناك من هو أغلى من الإنسان؟ لذا كان قراره حاسما، سوف يستثمر ماله وعلمه فى الإنسان، بل فيما هو أغلى

وأنفس ما فى الإنسان، وهكذا عقد العزم على أن يضع استثماره فى العقول، وبدأ غرسه فى الأرض التى ظنها الكثيرون بورا، فاختار أرضا صحراوية منعزلة واشتراها بتراب الفلوس كما يقولون، وأقام عليها أول مؤسسة تعليمية متكاملة تعنى بالأطفال ذوى المواهب العقلية الخاصة، فكان يرى فى طلابها أبناءه وأصدقاءه الحقيقيين الذين حرم منهم فى طفولته.

ومع هدأة الروليت واقتراب العجلة من الكف عن دورانها ومع تباطؤ الكرة الموشكة على الانزلاق فى خانتها المقدورة، بدأت أفكاره فى استعادة وضوحها والاقتراب من لحظته الراهنة، فتذكر كيف قسم مؤسسته التعليمية بشكل حاذق، فجعل فيها قسما مجانيا وقسما بأسعار رمزية وقسما بكامل الأجر للقادرين وأبناء الأشقاء الخليجيين، متبعا فى تمويل المدرسة نظرية الأوانى المستطرقة، حتى فتح فروعا لها فى عدة بلاد عربية شقيقة على سبيل الامتنان لأيامه التى قضاها فى أرضهم. وفى تلك اللحظة توقفت العجلة تماما بعد أن سقطت الكرة فى خانتها المقدورة، ولكنه لم يرها، فقد قام تاركا رهانه خلفه بعد أن استحوذ عليه رهان آخر يلح عليه منذ فترة طويلة، حتى تحول إلى سؤال لا ينقطع عن نحلته ومتى وأين ستكف عن دورانها؟

علي عوض

•

إلى تلك البلد مضى ليأتى بعلى عوض، فقد كان مطلوبا لعدالته. مضى نحوها وبنفسه حنق ولهفة لسرعة إحضاره، وتعجب من نفسه ومن الشعور بالغيظ الذى يملأ وجدانه، وهو الجامد المحايد الذى يأتمر بأمره ويأتى بهم جميعا دونما تمييز أو تراخ.

ومما زاد من حنقه، جهله للمرة الأولى بمكان المطلوب إحضاره، كل ما كان يعرفه أنه فى ذلك البلد، ولأول مرة يذهب لإحضار مطلوب وهو كاره له، إذ لم يكن من حقه أن يكره أو يحب كى لا يقع فى فخ التعاطف مع المطلوب، فيقصر فى مهمته. ولكنه لم يملك إلا أن يكرهه فى هذه المرة، ولم تكن تلك الكراهية نابعة من غموض العنوان أو ضلاله فحسب، بل كانت لما عرفه عنه من جبروت، وكيف كان يبسط سيطرته على أتباعه بكسر نفوسهم وعيونهم ليضمن ولاءهم أولا، ثم يعود ويرشوهم بالامتيازات والعطايا، ياله من "عربجى"؛ هكذا ردد بينه وبين نفسه الساخطة على ذلك العلى عوض.

فتش بين صفات البشر كثيرا عنه حيث بدأ من القاع مع طلعة النهار، وحين رآه هو يضرب صبيه ويسبه بفاحش القول فى تلك الورشة المعتمة الخانقة، توجه نحوه ممنيا نفسه بتمام المهمة، لكنه التفت على صوت يهدر من نفير سيارة مصحوب بسباب أقذع وأفحش. فالتفت ليجد "الأسطى" الذى صم أذنيه عن توسلات الصبى، وقد

صار كتلة من الآذان المصغية فى خنوع لإهانات الباشا، وكاد يسمع دبيب قلبه المرتعب من التهديدات الصادرة عن "الباشا"، بل واختنق برائحة العرق المتصبب ذعرا من الميكانيكى أو لعله بال على نفسه، فكادت تنتابه الشفقة نحوه وأرجأه إلى حين حتى يبت فى أمره.

والتفت نحو "الباشا" وعرف أنه وجد ضالته، فها هو "علي عوض" أمامه يتيه فى بزته العسكرية ونظارته المستوردة تلمع فى الشمس فتكسر العيون بالوميض المنعكس من سطحها مع كل لفتة يلتفتها، فتوجه نحوه بنية اصطحابه معه لكنه لم يلحق به، فقد انطلق "الباشا" بسيارته العسكرية متوجها لنقطة الشرطة، لكنه صمم على اللحاق به حتى ولو اضطر لانتزاعه من وسط حاشيته.

وحين لحق به تأكد أنه وجد "علي عوض" حسبما يقول الكتاب، وقبل أن يدنو منه دق الهاتف فتمهل وهو لا يدرى سببا لتمهله، لعله حدس ما أصابه وأنبأه بصيد أكبر. وقبل أن يدقق فى ظنونه لفت اهتمامه التحول الحاد فى مسلك "الباشا" وفى كلماته ونبراته المستعطفة لسعادته، ذلك الصوت المتجاوز أذن الباشا حتى ملأ الحجرة التى ران عليها صمت مقبض على ازدحامها. وما أن انتهت المكالمة العاصفة حتى أشار الباشا لعساكره باقتياد الشابين اللذين يحمل أحدهما كاميرا إلى مصيرهما المحتوم، فتسمع صرخاتهما مدوية تحت سياط "على عوض" آخر، يأتمر بأمر "الباشا" وبأمر "سعادته".

وعندئذ تفاقمت حيرته وسخطه على تلك البلد، فأيهم المطلوب؟؟

لكنه لم ييأس، ومضى يبحث عن المطلوب، وفى المساء وجد سعادته فى تلك الجريدة التى يرأس مجلس إدارتها، فأيقن أنه قد وجد ضالته أخيرا. وتأكدت استنتاجاته حين دخل عليه ليجده وقد انفرد برئيس قسم التحقيقات، ذلك المشاغب الذى يصر على فتح أبواب جهنم عليه وعلى الجريدة كل فترة، وسمع تهديداته له بعد أن تجاوز الخطوط الحمراء وأن عليه أن يحمد ربه أن الأمور لن تتعدى "قرصة الودن" للشابين فداء له وللجريدة حتى تطيب نفس "معاليه" فلا يهدها على رؤوسهم كما قال.

حين سمع ذلك عرف أنه لم يصل بعد إليه، فهاهو "معاليه" يقبض على السوط، وعندئذ فهم أخيرا أن عليه الاستمرار فى البحث عن "علي عوض".



إعترافات قاتل السندباد



أجل قتلت السندباد، أعترف بأننى قتلته عن عمد وعن سبق إصرار، وقبل أن تحاكمونى، اعرفوا حكايتى بعد أن شبعتم من حكايات السندباد، لن يضيركم أن تزداد الليالى ليلة أخرى تسمعوننى فيها.

اعلموا أننى بحار مثله، لا أقل عنه فى شيء بل أنا أفضل منه، ولا تعجبوا من قولى هذا فلست مدعيا ولا متنفخا، ولكى تفهموا حكايتى فلأبدأها معكم من البداية.

كنت بحارا فى طاقم السندباد، يجمعنا الشغف بالبحر والمغامرة، فكانا بالنسبة لنا مترادفين. كلنا كنا أفضل منه بيد أنه كان يملك ما لا نملكه، وهو المال الكافى لاستئجارنا، بل ابتياع أرواحنا التى كانت تزهق الواحدة تلو الأخرى فى تلك المغامرات.

أتدرون؟ السندباد لم يكن بطلا بل كان نذلا جبانا، ولهذا كان ينجو ويعود محملا بالكنوز والحكايات والبطولات الزائفة... ولهذا قتلته.

لم يرفع صاريا أو يشد قلعا يوما ما، لم يمسك المجداف بيديه الناعمتين يوما، لم يتسلق الصارى وينبح صوته فرحا برؤية الأرض بعد طول سفر، لم يسهر الليل فوق صارى المراقبة يصارع الريح والبرد والمطر و... النوم، ذلك الغول القادر على التهامنا فى لحظة.

كنت أراهم يتساقطون فى تلك الرحلات بعد أن أغراهم بالسفر معه. كنت أرى الغيلان والمردة وهى تأكل أقرانى... أما هو فلم يكن يجيد سوى الاختباء وتقديم القرابين لتلك الرحلات التى يعود منها سالما غانما بطلا. فكان يعود بالمال وتنهدات الحسان الحالمات به وبشجاعته.

هاكم جسدى فتشوه جيدا ولتفتشوا جسده. انظروا بأعينكم لمواضع الجراح فى جسدى، أما هو فلن تجدوا فيه سوى طعنة واحدة نافذة فى قلبه الواهى، ذلك القلب الذى تفاخر بجسارته.

سندباد... أدركنى يا سندباد... النجدة... النجدة.... آآآآآآه.

لكم طاردتنى تلك الاستغاثة فى كوابيسى، ولكم حومت أشباح زملائى فوق رأسى وضميرى، أما هو... فكان ينام قرير العين هانئا، ولئن حدث وسهر الليل فلكى يدون مغامراته وبطولاته، بطولاتنا... فهو لم يكن بطلا، ولهذا قتلته. قتلته ثأرا لهم ولشبابهم المسفوح قربانا لطموحه ونزواته، قتلته رغم إعلانه اعتزال البحر والسفر، وبرغم تقاعده وشيخوخته التى زحفت على أطرافه. قتلته سأما منه ومن أكاذيبه ومن أحلام يزرعها زورا فى أحلام الناس. قتلته لكى يصمت ولكى يكف عن التشدق بما ليس فيه، قتلته لأنه نسى وينسى ولم يتذكر يوما اسم واحدٍ من طاقمه، وأنى له الذكرى أوالتذكر وهم كثر!؟

بل لعله كان يتعمد ألا يتذكر، فكلنا بالنسبة له محض أرقام ومهام على سفينته، لم ينظر أبدا خلفه، لم يسعف جريحا أو ينقذ أسيرا أو

يسبل عينى شهيد، بل كان يفر بجلده ومغانمه، كنت أشبك يدى لأرفعه فيسارع بالهرب دون أن يمد يده لانتشالى، كنت له ظلا وتابعا وحارسا، ولهذا كان ينسى. أكاد أجزم أنه كان يتناسى لا ينسى، كى لا ينام ويصحو على صرخات الأشباح... ضحاياه من رفاقه ومحبيه.

راح السندباد، جاء السندباد، حمدا لله على سلامته، ولا ذكر لشهيد واحد من الرحلات المتعددة، فالسندباد فعل والسندباد سوى، وكأنه مائة رجل... مئات بل آلاف الرجال، وحقيقة الأمر أنه جبان جاحد ولهذا قتلته.

قتلته لأننى لم أملك إلا الصمت، فلو حكيت عن بطولات الشهداء لأخرستنى الجموع، فالأبطال لا تموت والسندباد لم يمت فى أى من تلك الرحلات.. ولهذا قتلته.

قتلته لأنه لم يذكر ولم يتذكر أحدا، فلو تذكر.. لتذكر ولكنه آثر أن ينسى... ولهذا قتلته.

الفهرس